INTERNATIONAL UNIVERSITY FOR SCIENCE & TECHNOLOGY
الجامعة الدولية الخاصة للعلوم والتكنولوجيا

تاريخ الفن والتصميم (2)

Lesson (3)

الفن البيزنطي

Byzantine art

أستاذ المقرر

أ.د. عبداللطيف سلمان

الفن البيزنطي

Byzantine art

إذا كنا نقيس أهمية الفن البيزنطي بالنسبة لمكانه المتواضع في المتاحف فإننا نقدره كفن ثانوي. وإلى عهد قريب كان يطلق على الفن البيزنطي فن العصور المظلمة. والمعروف أن الإمبراطور قسطنطين وضع أساس عاصمة ملكه على البوسفور سنة (330)م. وهكذا يمكن أن نحدد مدة الفن البيزنطي، بين تاريخ إنشاء المدينة وتاريخ سقوطها في يد الأتراك العثمانيين سنة (1453)م.

والحضارة البيزنطية حضارة شرقية عاشت على أرض عربية متوسطية شرقية، وبقيت محتفظة بخصائصها الشرقية على الرغم من أنها كانت الوريثة الوحيدة للفنون الكلاسيكية الرومانية. ولقد قامت حروب كثيرة بين بيزنطة وبين جيرانهم من الفرس والبربر والعرب المسلمين، إضافة إلى الهزات الأرضية التي تعرضت لها، مما أضعف من تطور الحضارة فيها.

وقد أصبح الفن البيزنطي يقدر تقديراً عظيماً لما يمتاز به من حساسية وترابط في العمل الفني بحيث يعتبر أنقى وأصدق قالب فني أنتج في ظل المسيحية. ويعتبر الفن البيزنطي حلقة من حلقات الفنون الشرقية.

العمـارة:

بلغ فن العمارة البيزنطي أقصى ازدهاره في كنيسة أياصوفيا التي بنيت في عهد الإمبراطور جوستنيان Justinien (527-565)م.الذي يعتبر من أشهر أباطرة بيزنطة حيث امتد سلطان بيزنطة في عهده ليشمل بلاد البلقان، ثم سورية والأناضول، وأخيراً مصر. وبعد حوالي نصف قرن من نهاية حكم جوستنيان قاد هيراقليوس (هرقل) الذي حكم من (610-641)م. جيوشه لحماية الإمبراطورية من خطر الفرس عام (622)م. وفي زمنه استطاع العرب جعل سورية وفلسطين ومصر تحت سيطرة الخلافة الأموية.



الشكل رقم 1 : كنيسة أيا صوفيا – اسطنبول.

وقد احتفل بافتتاح كنيسة أياصوفيا في سنة (537)م. (شكل رقم 1) بإشراف المعماريين أنتيميوس Anthemius من ترالس، وإيسيدور Isidore من ميله. وقد بنيت الكنيسة على تخطيط مربع فيه رواق أوسط وأروقة جانبية والسقف عبارة عن الاتصالات بين القبة الرئيسية وأنصاف القباب التي تحيط بها. والمنظر الخارجي يوضح لنا كتلة معمارية متماسكة مغطاة بقبة سائدة وأنصاف قباب منخفضة، وعلى الرغم من بساطة التصميم فإن المكان من الداخل في غاية الفخامة بما يحتويه من أعمدة جرانيتية ذات ألوان حمراء وخضراء، وقد كسيت الجدران بالمرمر المختلف التعريقات، أما بطون العقود والقبة الكبيرة وأنصاف القباب الساندة لها فتتلألأ بالفسيفساء ذات الزخارف المجردة.

وزخارف أياصوفيا مجردة ومملوءة بالمعاني والقصص التي تتوالى في تتابع كهنوتي من المناظر الإنسانية على الأرض إلى مناظر لها علاقة

بحياة السيد المسيح والسيدة العذراء خلال صور الأنبياء والقديسين والملائكة على الجدران وأركان القبة الأربعة، وفي قمة القبة.

وعندما فتح السلطان العثماني محمد الثاني القسطنطينية عام (1453)م. حولوا الكنيسة إلى جامع ولم يمس هذا الأثر بأي تغيير سوى بناء أربع مآذن من الخارج في الأركان الأربعة، كما غطوا الصور الفسيفسائية التي تمثل الحوادث الدينية المسيحية بطبقة من الجير مما كان سبباً في المحافظة عليها حيث كشفت مرة أخرى. وتعتبر قبة أياصوفيا من أعظم القباب فقطرها (31)متراً وارتفاعها (56)متراً.

وقد انتشر الفن البيزنطي في المنطقة الإدرياتيكية (هو البحر الواقع بين إيطاليا ويوغسلافيا) في إيطاليا بسبب العلاقات بين رافينا والقسطنطينية، ولكن كنائس رافينا بنيت على تخطيط البازيليك. ومن أجمل الأمثلة كنيسة سان أبوللينير الجديدة Saint Apollinaire le neuf التي بنيت في رافينا بإيطاليا في القرن الخامس في عهد الإمبراطورة تيودورا، وأنجز فيها بالفسيفساء صور القديسين من الرجال وهم متجهون نحو السيد المسيح، وصور النساء ووجوههن ناظرة إلى السيدة مريم العذراء وملابسهن مزركشة بالخيوط الذهبية ومرصعة باللآلئ وعلى رؤوسهن الإزار النازل على ضفاف شعورهن، وبين كل واحدة والأخرى سيقان الأزهار وسعف النخيل. (الشكل رقم 2):



الشكل رقم 2: **كنيسة سانت أبو اللينير – رافينا – إيطاليا.**

النحـت:

كان الفن البيزنطي خالياً من التماثيل حيث ساد اعتقاد أن الصور والتماثيل "تبتعد بروح الإنسان عن عبادة الله العبادة السامية وتهديه إلى العبادة المادية المرذولة للمخلوق" بمعنى أنهم اعتقدوا أن الوثنية اتجاهٌ عقلي يقود العابد إلى استبدال الشيء المخلوق بخالقه. وعلى الرغم من ذلك فإنه ابتداء من القرن الخامس الميلادي بدأ النحاتون في عمل تماثيل للسيد المسيح والقديسين وحوادث التاريخ الدينية، ثم انتشر هذا الاتجاه إلى درجة الإسراف مما دعا الإمبراطور ليون الثالث (717–740)م. الذي صدَّ غزو العرب للقسطنطينية عام (717)م. إلى إصدار قرارٍ بتحريم عمل التماثيل وأمر برفعها من الكنائس، وتكونت أحزاب لتنفيذ ذلك وأطلق على هذه الحركة "مكسري التماثيل" وقد استمرت هذه الحركة نحو المائة عام. كما لعب دوراً هاماً في معركة (الإيكونو كلازم) أي محاربة تمجيد التصوير الديني، وكان هو أول من أصدر قراراً بتحريم التصوير عام (726)م. ثم جاء ابنه قسطنطين الخامس وأصدر القرار الثاني، وقاوم من أجل ذلك ردود الفعل، إلى أن تحقق الإصلاح الأرثوذكسي على يد الإمبراطورة تيودورا. لذلك يندر وجود نحت بيزنطي، ومن أبرز الآثار النحتية كرسي من رافينا مصنوع من العاج، وعلى جوانبه نقوش بارزة وزخارف دقيقة هي أجمل ما بقي من فن النحت البيزنطي. (الشكل رقم 3):



الشكل رقم 3: **نحت بيزنطي.**

التصــوير:

لم يبق إلا بعض الصور الصغيرة تمثل السيد المسيح والقديسين، أما صور الفسيفساء فكثيرة في جميع الكنائس البيزنطية، ونجد صورتين لهما شهرة خاصة في كنيسة سان فيتال بمدينة رافينا بإيطاليا، إحداهما تمثل الإمبراطور جوستنيان مع كبار رجال الدولة، وصورة أخرى للإمبراطورة تيودورا وحاشيتها من النساء، والصورتان من أجمل ما صنع بالفسيفساء في الفن البيزنطي. (الشكل رقم 4):



الشكل رقم 4: الإمبراطور جوستنيان مع كبار رجال الدولة.



الشكل رقم 4: الإمبراطورة تيودورا وحاشيتها من النساء.

ومن الملاحظ أن ثمة علاقة قوية بين أسلوب الفن البيزنطي وسائر أساليب التصوير في المنطقة العربية. فإذا قارنا الصور الجدارية التي عثر عليها في دورا أوروبوس ونظيرها من الفن التدمري مع تلك التي عثر عليها في الفيوم ثم وصلنا إلى تصوير الإيقونات، لرأينا أن وحدة عجيبة في الأسلوب تربط بين هذه الصور، مما يؤكد التأثير العربي التام على الفن البيزنطي.



كذلك ازدهر فن المنمنمات (المخطوطات) وهو الفن الشعبي المسمى Enluminure وهي كتب علمية ودينية تكون حوافها مزخرفة برسوم ملونة غاية في الجمال، وقد خضعت لمفاهيم فنية محضة ذات طابع شرقي واضح. (الشكل رقم 5):

الشكل رقم 5: منمنمات (مخطوطات) Enluminure.

الفنون التطبيقية:

كانت الفنون التطبيقية متقدمة عند البيزنطيين لما استفادوه من التقدم العظيم لهذه الفنون في بلاد الشرق، وقد صنعوا كثيراً من الصناديق الصغيرة التي توضع فيها المخلفات المقدسة، والصور الصغيرة داخل إطارات من النحاس المطروق المفرغ، وكانت ترصع هذه الإطارات بالأحجار الكريمة، وبعض هذه القطع الفنية من الذهب المكفت بالفضة، ويطلق على هذه الصور أيقونات. (الشكل رقم 6):



الشكل رقم 6: أيقونة من دير القديس تقلا – سيناء.

============